

المناضل التونسي حافظ ابراهيم ودوره في دعم الثورة الجزائرية

د. عبدالله مقلاقي 

جامعة المسيلة

الملخص:

هذا المقال يتناول جهود واسهامات المناضل التونسي حافظ ابراهيم في دعم الثورة الجزائرية، ومنها توفير السلاح وربط الاتصالات وكسب الموقف المغربي والاسباني لصالح الثورة، وسوف نتعرف على مساهمات فعالة مفيدة للثورة الجزائرية ومع ذلك ظلت هذه الشخصية مغمورة، وظلت هذه الصفحة الحافلة مغيبة في تاريخ الثورة الجزائرية .

الكلمات المفتاحية: تونس، النضال التونسي، حافظ ابراهيم، الجزائر، الثورة التحريرية

Abstract

This article examines the efforts and contributions of the Tunisian activist Hafez Ibrahim in support of the Algerian revolution, including the provision of arms and communication link and earn Moroccan position and Spanish for the benefit of the revolution, and will recognize the effective contributions useful to the Algerian revolution However this personal submersible remained, and remained this page absent the bus in the history of the Algerian Revolution .

المقدمة:

من بين الشخصيات العربية والإسلامية التي خدمت الثورة الجزائرية بإخلاص حافظ إبراهيم، وهو مناضل تونسي دستوري آمن بوحدة القضية المغاربية، وكرس حياته انطلاقاً من تواجده في إسبانيا لدعم حركة تحرير ووحدة المغرب العربي، ناضل من أجل القضية التونسية، واكتشف خدماته المناضلون المغربيون أولاً وتحول إلى صديق حميم لقادة جبهة التحرير الجزائرية وخادم لهم في إسبانيا، وعلى الرغم من تعدد الأدوار التي نَحُض بها فإنه يظل شخصية مجهولة لم ينصفه التاريخ، ولم تستحضر فضائله وأدواره، وهذا ما يطرح على الباحثين أكثر من سؤال، فما هي خصوصيات شخصية هذا الرجل وتوجهاته السياسية والفكرية، وكيف ارتبط بحركتي التحرير المغربية والجزائرية، وما هي الأدوار التي قدمها لدعم الثورة الجزائرية؟ أسئلة نحاول الإجابة عنها على ضوء ما توافر لدينا من مصادر ومراجع، وأهمها شهادته الشخصية التي سجلها الصحفيين المغربيين محمد خليدي وحמיד خباش ونشرها مع شهادة الخطيب في مؤلف "جهاد من أجل التحرير"، وشهادة المناضلين الذين عملوا معه وأشادوا بأدواره.

أولاً: حافظ إبراهيم النشأة والنضال المستمر.

ينتسب حافظ إبراهيم إلى عائلة محافظة ومناضلة بمنطقة الساحل التونسي، شارك والد جده في حرب القرم إلى جانب الأتراك واستشهد في إحدى المعارك، وشارك أفراد من أسرته خلال الحرب العالمية الأولى إلى جانب الأتراك، أما والده فكان شيخاً زيتونياً، تخرج من الزيتونة على رأس الدفعة التي كان من خريجائها كذلك الشيخ عبد الحميد ابن باديس، اشتهر الوالد بالعلم والاستقامة وكان يلقب بمنارة الساحل التونسي، شارك في تأسيس خلايا الحزب الدستوري القديم الذي أسسه عبد العزيز الثعالبي الجزائري الأصل، والذي ترك بصماته في مسار الحركة الوطنية من خلال نشاطه السياسي وكتابات ومواقفه الصارمة تجاه الاحتلال¹

ولد محمد حافظ يوم 15 ماي 1916 بقرية أكودية الساحلية، تلقى تعليمه في الكتاب القرآني، ودخل المدرسة الابتدائية الفرنسية، وقد رسخت في ذهن محمد حافظ صور التمييز بين الأهالي والفرنسيين ومظاهر التبشير التي كانت على أشدها، ومن بين أساتذته شخص يسمى عميروش، وهو مثقف من منطقة القبائل الجزائرية كان يذهب كل يوم أحد إلى القُداس، ويذكر حافظ أنه ارتبط بالجزائر وجوها السياسي منذ الصغر، فهو يذكر أنه بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر سنة 1930 شن رفقة التلاميذ إضراباً عاماً، ووجهت له الإدارة شخصياً تهمة التحريض²

تحصل في سنة 1934 على شهادة البكالوريا في شعبة الفلسفة ودخل جامعة السربون ليدرس الطب، وفي باريس واكب نشاط الحركة الطلابية والوطنية الشمال إفريقية، ورسخت في ذهنه أفكار التحرر والتضامن المشترك مع الإخوان الجزائريين والمراكشيين من أجل تحرير الشمال الإفريقي.

وخلال الحرب العالمية الثانية قرر استغلال الظرفية الملائمة للثورة على فرنسا وحل بالجزائر اعتقاداً منه أن الجزائريين كانوا مستعدين للحرب أكثر من غيرهم، ويذكر حافظ في شهادته أن ذلك تم بتنسيق مع مناضلي حزب الشعب الذين تعرف عليهم في فرنسا، وذكر منهم محمد خيضر ومحمد الجيلالي، وقد أكد أن هدفه كان إعلان ثورة عارمة على الفرنسيين وأنه اجتهد في البحث عن الأسلحة وتحصل على بعض القطع منها بواسطة ضابط جزائري اسمه "الدواني"، وأنه حصل اتصال مع السلطات الألمانية لطلب مساعدتها، ولكن مصالي الحاج رفض مشروع ثورة بدعم من الألمان، ويبدو أن اتصالات حافظ كانت حثيثة، حيث أورد أنه اتصل شخصياً بخمسين مناضلاً كانوا مستعدين جميعهم للثورة، وأنه تعرف في الجزائر على عبدالكبير الفاسي والمهدي بن بركة الطالبين

المغربيين في كلية العلوم، وبعد ثلاث أشهر شعر حافظ بتفطن الفرنسيين لنشاطه فخرج من الجزائر بأعجوبة سنة 1940 وقد رافقه ابن بركة الى الباحة التي أفلته الى فرنسا³، وتفصح هذه الشهادة عن جرأة وإخلاص حافظ للعمل الثوري، وارتباطه المبكر مع الجزائر من خلال اختياره للجزائر بدل تونس لتجسيده مشروعه الثوري، وتبقى كثير من القضايا غير معروفة عن مشروع هذه الثورة، خاصة وأن المناضلين الجزائريين لا يشيرون الى دور حافظ في مشروع انتفاضتهم، في حين تشيد بالأدوار التي نهض بها عبدالرحمان ياسين رفيق حافظ⁴

وقد ارتبط حافظ بمجموعة ثامر والرويسي والتريكي التي تعاونت مع الألمان بهدف المساعدة في تحرير تونس، كما كانت له ارتباطات وثيقة مع الطلاب العرب وخاصة المغاربة الذين يدرسون بفرنسا وينشطون في حركات التحرر (عبدالكبير الفاسي، أحمد الديوري، أحمد العلوي، شوقي مصطفى... الخ)، تولى في مطلع سنة 1944 رئاسة جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، وكان قد انتخب عام 1936 كاتباً عاماً للجمعية، وشارك في تعميق روابط التضامن المغاربية بين الطلاب والمهاجرين، مستغلاً في ذلك ظروف هزيمة فرنسا ورغبة الألمان في مساعدة العرب على التحرر، وينزل الحلفاء في فرنسا اضطرت لترك فرنسا واللجوء الى اسبانيا⁵. استقر في مدينة "سان سيباستيان" ثم بمدينة "فونتايري"، وتكفل بمهمة استقدام الوطنيين التونسيين الى اسبانيا، وكانت الشرطة الفرنسية ترصد تحركاته⁶، وانتقل الى مدريد وتلم اللغة الاسبانية، وفتح مكتباً سرى لاستقبال زملائه المناضلين التونسيين الذين فروا الى هناك هرباً من انتقام الفرنسيين، وكان ينوي ممارسة مهنة الطب للتغطية على نشاطه لكن القانون الاسباني لم يكن يسمح لحاملي الشهادات الأجنبية بممارسة هذه المهنة، واضطر لفتح مخبر لصناعة الأدوية، وحقق نجاحاً باهراً في ذلك، وأوجد حافظ علاقات مفيدة في الأوساط السياسية والعسكرية الاسبانية تمهيداً لمساعدة المناضلين المغاربة، وخطط رفقة عبدالرحمان ياسين لحل اسبانيا قاعدة خلفية لدعم حركات التحرر المغاربية، واثراً انتقال مجموعة ثامر الى القاهرة وإنشائها لمكتب المغرب العربي عام 1947 أسس بمجهده الخاص "لجنة الدفاع عن قضايا المغرب العربي"⁷، وهي لجنة قد تكون امتداداً لمكتب مدريد المؤسس من قبل المناضلين الدستوريين التونسيين، ولكننا لا نعرف الكثير عن توجهاتها وارتباطاتها، وكانت أهدافها بالأساس تحرير المغرب العربي وتوحيده.

وقد بذل حافظ جهوداً معتبرة في التعريف بقضايا المغرب العربي في اسبانيا، وربط علاقات وثيقة مع المناضلين المغاربة، وخاصة المغربيين الذين كان له حضور متميز في اسبانيا. وقد تعرف منذ بداية الخمسينيات على كثير من قادة حزب الاستقلال المغربي، وسوف يكون له شأن في دعم حركة المقاومة المغربية والثورة الجزائرية وتوحيد حركات التحرر المغاربية⁸.

ثانياً : حافظ ابراهيم ودعم حركات التحرر المغاربية:

استكمالاً لنشاطه الطلابي والسياسي الذي توقف اضطراراً في فرنسا واصل حافظ نشاطه الوطني في اسبانيا بعزيمة وحيوية، وان كان ظل متمسكاً باستراتيجية العمل المغاربي الموحد فقد اهتم بالقضايا الوطنية لأقطار المغرب العربي الثلاث، وكان ثورياً مؤمناً بخيار العمل المسلح سبيلاً لتخليص هذه الأقطار من رقة الاحتلال وأن الاستعمار الذي دخل البلاد بالقوة لا يمكن أن يخرج منها إلا بالقوة، ولتحقيق هذا الهدف اقتنع حافظ بضرورة تغيير العقلية باتجاه العمل الثوري، واعتماد كل السبل الممكنة لتسهيل الوصول للهدف، وتوفير وسائل العمل وهي الأسلحة⁹، ولهذا وجدناه ثورياً مختلفاً عن توجهات الأحزاب السياسية، ومهما بالبحث عن أي طرف يساعد على تحرير المغرب العربي (ألمانيا، اسبانيا، مصر... الخ)، ومسخر كل جهده لتوفير الأسلحة.

1. دعم حركة التحرر التونسية:

بعد طول انتظار استبشر حافظ خيرا بانطلاق رصاصات المقاومة الأولى في تونس عام 1952، وخلال هذه السنة قام حافظ بجولة طويلة استغرقت سنة بحالها، وسخرها للدعاية لقضايا تحرير المغرب العربي وقضية بلاده خاصة، بدأها بالقاهرة والتقى هناك صالح بن يوسف، وعرض عليه إمكانية تزويد المقاومة بالأسلحة، لكنه رفض التعامل معه لأسباب مجهولة، قد تكون بسبب ماضي الرجل وأفكاره وطريقة عمله، وقد اغتاز حافظ من تنكر الوطنيين التونسيين له ورغم ذلك واصل جهده في الدفاع عن قضية بلاده سواء في اسبانيا أو في الأقطار العربية والإسلامية التي زارها، ولم ييأس حافظ من جواب ابن يوسف، فكانت له مراسلات واتصالات مع قادة الحزب الدستوري، ومنهم الباهي لدغم ممثل الحزب بنبيورك، والذي يؤكد أنه كانت له مراسلات مع حافظ منذ أبريل 1952، وقد اشتكى له حافظ في رسالة مؤرخة في 6 سبتمبر 1952 من موقف الدستوريين الذين التقاهم في القاهرة، حيث جاء في الرسالة ما يلي: "... ولقد ذهبت الى الشرق في الحقيقة لا للتجارة والاطلاع ولكن قبل كل شيء لم يد المساعدة لإخواني ناسيا الماضي بما فيه من ضغن وإحن، إذ كنت أظن أن الدماء التي قدمها الشعب بدون تردد ومساومة كانت ختما مقدسا للوحدة والتضامن لكل التونسيين الذين ساعدتهم الظروف بأن يكونوا يدا وصوتا لبلدهم في أرض الله الواسعة. ولكن يا للأسف إذ وجدت غير ذلك ورجعت بحزن يعقوب على يوسف يوم كاد يقتله إخوته..."¹⁰.

وقد زار حافظ العراق وسوريا ولبنان، كما مكث شهرا في إيران في ضيافة أبي القاسم الكاشاني، وصام رمضان في تركيا، حيث التقى "مندريس" الرئيس التركي صاحب التوجه الإسلامي، وقد سعى حافظ ليعرض عليه إقامة مؤتمر إسلامي¹¹، وقد عمقت هذه الزيارات من اطلاعه على أوضاع العالم الإسلامي وساعدته في كسب صداقات جديدة، استغلها في التعريف بالقضية التونسية دون أي توجيه من الحزب.

2. دعم المقاومة المغربية:

في أوت 1953 تمت تنحية الملك محمد الخامس من عرشه ونفيه، وبدأت أعمال المقاومة السياسية والعسكرية، وشاهد حافظ بالصدفة الخبر المصور لهجوم علال بن عبد الله على السلطان المزيف ابن عرفة، فعقد العزم على أن يكون جنديا في صف المقاومة المغربية¹²، وكان قد اتصل قبل أيام بممثلي حزب الاستقلال باسبانيا عبد الكبير الفاسي وعبدالرحمان اليوسفي، كما اتصل به السفير الأردني بمدير عيسى البندق ليطلب منه الاتصال بعلال الفاسي ليستحثه على القدوم الى مدريد لإقامة جنازة رمزية للملك محمد الخامس عرفانا بوطنيته¹³.

وقد تجند حافظ لدعم المقاومة المغربية بكل ما يملك من قوة، فأخذ بيد عبد الكبير الفاسي الذي حل بمدير ليكون رابط اتصال بين قادة حزب الاستقلال في الداخل والخارج، وليشرع في البحث عن الأسلحة استعدادا لتنظيم المقاومة المسلحة، وقد ذكر حافظ أن عبد الكبير كان يمر بظروف مادية صعبة وأنه كان يقدم له يد المساعدة: "كان عبد الكبير ينشط في اسبانيا بصفته ممثلا للحزب، وكنت دائما أنصحته بالاتصال بالأوساط النافذة واجتذاب المغامرين والفسطاطيين كالمدعو سكورتزيري مثلا"¹⁴، وهكذا يبدو أن اللقاء مع عبد الكبير الفاسي شكل بداية انخراط حافظ في دعم المقاومة المغربية.

وقد كانت الأراضي الاسبانية بمثابة قاعدة خلفية للمقاومة وحلقة اتصال بين المغرب وأوروبا خاصة في مجال تنقل الأشخاص وشراء الأسلحة من السوق السوداء، وكان حافظ مؤهلا ليكون موجهًا وداعما لهذا النشاط بحكم معرفته للميدان وصداقته لعدد من المسؤولين والمهربين الاسبان، كما أن مخبره الصيدلي كان بمثابة خزان أسلحة ومواد كيميائية وقنابل الخ¹⁵. وعن بداية نشاطه في مد المقاومة بالسلح يقول حافظ في شهادته: "... حضر أحمد الدغموني من المغرب، كانت له سيارة أجرة قديمة من نوع شفروليه، فأرسلته مع أحد الكيماويين الذين يشتغلون معي الى الأشخاص الذين اشترت منهم السلاح، كما أهدى لي صديق حميم اسباني

اسمه انتونيو بعض القطع... وجمعت بذلك سبعة عشر قطعة أرسلتها مع أحمد الدغموني في شهر شتنبر 1953 ... ولما اشتد الطلب على السلاح أضاف الإخوان سيارتين، واحدة لعبد السلام الكيداني وثانية لمحمد الشاوي، واستمر حمل السلاح من الشبكات التي أعدتها في مدريد وبرشلونة الى غاية دجنبر 1957¹⁶.

وقد كانت هذه المساعدة مهمة وتبعث الأمل على إمكانية التزود بالسلاح، ويشير محمد البجاوي الذي سجل شهادات قادة حزب الاستقلال والمقاومة رواية حافظ السابقة ويؤكد إن دفعة السلاح الأولى التي أرسلها كانت من ماله الخاص، " ... في يوم 27 أوت (1953) اتصل أحد قيادي حزب الاستقلال، الكبير الفاسي بمدير السيد حافظ إبراهيم قبل أن يقوم بجولة واسعة في أوروبا: اسبانيا، ألمانيا، بلجيكا، سويسرا وإيطاليا قصد شراء وتسريب الأسلحة نحو المغرب، وكانت مبالغ الصفقة الأولى من تمويل حافظ إبراهيم ثم تلاحقت مساعدات الأقطار وتبرعات الشعوب العربية...¹⁷.

وهكذا وبعد نجاح مهمة شراء وتزويد الأسلحة الى المقاومة المغربية اشتد عضد المقاومة، التي نفذت عمليات جريئة في عدة مدن مغربية، وأمام تزايد الحاجة الى الأسلحة عظمت مسؤوليات حافظ الذي سخر إمكانياته للبحث عن الأسلحة في اسبانيا وخارجها والتخطيط لتفريتها الى المغرب بالاستعانة مع بعض أعوان الشرطة والجمارك، وأصبحت لحافظ شبكة شراء وتهريب أسلحة واسعة تمتد المقاومة بكل ما تحتاجه من أنواع الأسلحة، وفي عام 1954 اقترحت حركة المقاومة على حافظ المساعدة في نقل العمل المسلح الى فرنسا، فاصطحب معه حسن العرائشي الى برشلونة وقدمه لأصدقائه من أجل تسهيل إدخاله للتراب الفرنسي، ولما اتصل بالإخوان المغاربة هناك وجدهم غير مستعدين، وقد وجهه حافظ الى أصحابه تحسبا لأية مساعدة، وفي بداية عام 1955 كرر حافظ المحاولة لكنه لم يوفق في ذلك¹⁸، وقد استبشر حافظ خيرا بتعيين عبدالكريم الخطيب قائدا لجيش التحرير المغربي، وربط معه علاقات وثيقة، وفي أبريل 1955 طلب عبدالكبير الفاسي وعبدالكريم الخطيب إدخال حقيبة من الأسلحة وكتب خاصة بصناعة القنابل جمعها هذا الأخير من فرنسا، فتولى حافظ بمساعدة أحد أصدقائه الأسبان إدخالها الى تطوان بنجاح¹⁹، ويذكر حافظ أنه أرسل كذلك قطع أسلحة مع المقاوم حسن صفي الدين عام 1954، وزود عباس المسيعدي بقطعة سلاح دخل بها الى المغرب، ورافق الغالي العراقي الى إيطاليا لشراء باخرة أتوس وكمية كبيرة من الأسلحة²⁰. كما تكفل حافظ بتحضير أقراص السم للمقاومين الذين يضطرون لأخذها عند الضرورة، حيث أفتى علال الفاسي بجواز ذلك²¹، وقد شهد أحد قادة المقاومة الغالي العراقي بفضل حافظ ودوره في اعزاز المقاومة المغربية، حيث قال عنه ما يلي: "شخصية مناضلة مكافحة، شخصية لا يعرفها الكثيرون ولا يعرفون دور هذا الوطني العربي الإسلامي، ويتعلق الأمر بالدكتور حافظ إبراهيم، وهو تونسي الجنسية، تجمعت فيه كل مكارم الأخلاق وحسن السيرة وعمق الوفاء ودمائة المعاشرة، واضح في أفكاره صادق في كلامه أمين في التزاماته مؤمن بالمبادئ السامية التي جعلت منه القدوة والمثل لمن يريد ولوج ميدان الكفاح والجهد بقيم التضحية ونكران الذات لقد وقف هذا المناضل في صف الحركة التحريرية المغربية وتقدم صفوف جبهة التحرير الجزائرية، ساندتهما معا وركاهما وأيدهما بكل ما في الكلمات من معاني وذلك بأشكال شتى، بالفعل لا بالقول، بالدعم لا بالتمويه، بالمساندة وبالمساعدة بكل ما يستطيع، ولم ييخل ولم يدخر من الدعم كيفما كان لونه ونوعه، الشيء الذي لا يقتضي فحسب الاعتراف له بالجميل، بل يجب الإقرار له أنه كان ركنا أساسيا للحركتين التحريريتين المغربية والجزائرية اللتين فتح الدكتور حافظ أمامهما أبواب العمل النضالي داخل التراب الاسباني وتطويره وتأييده والدفع به إلى الأمام"²².

ويبدو واضحاً أن تجربة حافظ في دعم المقاومة المغربية كانت ثرية ومفيدة، وقد استثمرت بعد استقلال المغرب في دعم الثورة الجزائرية، وقد حافظ على علاقات وثيقة مع رموز المقاومة الذين تولوا مناصب حكومية في المغرب المستقل ومع محمد الخامس والأمير الحسن سخرها في خدمة دعم الثورة الجزائرية والتضامن المغاربي.

3. دعم مشروع جيش تحرير المغرب العربي:

ناضل حافظ إبراهيم مطولا من أجل تحسيد وحدة المغرب العربي في الكفاح، وقد توفرت في عام 1954 ظروف أفضل لتوحيد المعركة، خاصة بعد اندلاع الثورة الجزائرية واستعداد مصر لدعم المعركة المشتركة، وقد كان سعي جبهة التحرير الجزائرية والسلطات المصرية حثيثا لتوحيد جيوش تحرير المغرب العربي الثلاث، واشترطت المخابرات المصرية لتقديم دعمها من الأسلحة لتوحيد كفاح الجبهتين الجزائرية والمغربية، لكن علال الفاسي لم يستسغ المشروع، واختلف مع فتحي الديب، مما جعل هذا الأخير يقترح إقصاء علال الفاسي كشرط لتقدم المساعدة لجيش التحرير المغربي، وعندما ابلغ عبدالكبير الفاسي حافظ إبراهيم بهذا الأمر استنكره، وأكد على ضرورة التمسك بعلال الفاسي زعيما للحزب والمقاومة والحرص على عدم تدخل المصريين في شؤون المغرب الخاصة، وأعرب عن ثقته في إمكانية إيجاد تمويل لجيش تحرير المغرب العربي في حجم الحكومة المصرية، وبسبب هذا الموقف وغيره اتخذت السلطات المصرية موقفا معاديا لحافظ²³.

وقد تراجعت المخابرات المصرية عن شرطها هذا، وقبلت بمساعدة جيش تحرير المغرب العربي الذي يلتزم بمواصلة المعركة إلى غاية تحرير الأقطار الثلاث تونس والجزائر والمغرب، وتم التحضير لإنشاء جيش تحرير المغرب العربي بالناظور في جوان 1955، ولاندلاع الثورة المشتركة في المغرب والجزائر بداية أكتوبر 1955. وقد تطلب الوصول إلى هذين الانجازين جهودا جبارة بذلها المخلصون لفكرة وحدة المغرب العربي، ومنهم حافظ إبراهيم الذي كان يمثل لوحدة جبهة تكاد توازي الجبهة المصرية²⁴، حيث كان خير ناصح للقادة المغاربة الذين يلتقي بهم في مدريد وتطوان، واستمر في دعم هذا الجيش بالأسلحة والمعدات بواسطة شبكته النشطة في التهريب، كما كان ينهض بالمهمات الصعبة.

فمن أجل حث الوطنيين التونسيين على الانضمام لجيش تحرير المغرب العربي وتقويت الفرصة على فرنسا كلف حافظ في فيفري 1955 بإقناع صالح بن يوسف المتواجد بجنيف بإيقاف المفاوضات مع فرنسا وتعميم المعركة في المغرب العربي، وأكد لابن يوسف ضرورة إقناع بورقيبة بالتراجع عن المفاوضات والانضمام للجبهة المغربية الجزائرية التي ستنتفض قريبا، وكانت إجابة ابن يوسف حسب شهادة حافظ مستخفة بهذا المشروع²⁵، ولم تمض ثلاث أشهر حتى تحول صالح بن يوسف عن موقفه لصالح جبهة التحالف المغاربية.

وقد حقق جيش تحرير المغرب العربي أهدافا إستراتيجية، فبعد أسبوع من اندلاع ثورة 2 أكتوبر 1955 اضطرت فرنسا لإعادة الملك محمد الخامس إلى عرشه والدخول في مفاوضات الاستقلال، كما لجأت إلى منح تونس الاستقلال التام، وذلك خوفا من وحدة المعركة في الأقطار الثلاث التي كانت بلا شك تعصف بالوجود الفرنسي في كامل الشمال الأفريقي.

وقد اعتقد حافظ أن استقلال تونس والمغرب سيكون مكسبا مهما للثورة الجزائرية، ولم يبد موقفا مناوئا لاستقلال المغرب وتونس بحجة اتفاقية العمل المشترك، بل سعى لتمكين الثورة الجزائرية من الاستفادة من استقلالهما، "كنت ضد الاتفاقية الذاتية لتونس، لكني لم أكن أحب الفتنة، وقدرت أن العمل من أجل فتح جبهة جديدة في جبال الريف والأطلس أجدى، وعندما يستقل المغرب تطالب تونس باستقلالها، وإذا استقل الجناحان سيرفران على الجزائر".²⁶، وكانت وجهة نظره هذه مطابقة لوجهة نظر مؤتمر

الصومام، في حين أن قادة الوفد الخارجي والسلطات المصرية كانوا معارضين لاستقلال المغرب وتونس ويبحثان عن تسوية مشتركة مع الجزائر، وقد بذل حافظ من اجل ذلك مساع حثيثة جعلت منه جنديا مخلصا لنصرة الجزائر.

4. صلاته بالثورة الجزائرية :

تردد اسم حافظ بين أوساط المناضلين الجزائريين من خلال دوره في دعم المقاومة المغربية، وقد تناهى إلى مسامع حافظ إبراهيم موعد اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر عندما أعلمه بذلك عبد الكبير الفاسي الذي أبلغه بحاجة المقاومة الجزائرية للسلاح²⁷. وكان ابن بلة وابن بوالعيد قد اجتمعا بعبدالكبير الفاسي في بيرن السويسرية عشية اندلاع الثورة، وطلبا منه شراء الأسلحة وتوحيد المقاومة في المغرب العربي.

وكان اتصال الدكتور حافظ بالقادة الجزائريين حدثا بارزا في حياته ما زال يذكر تفاصيله الى اليوم: "في إحدى الليالي اتصل بي عبد الكبير الفاسي، أيقضني من النوم، وقال لي : لا بد أن أراك حالا، لما سألته عن سبب هذه الطوارئ والأوامر الاستعجاليين، أجابني بقوله: لقد أتيتك بشخصين في منتهى الجراة، ذهبت إلى مكان تواجهه بمقهى قرب ضواحي مدريد، فوجدته مع شخصين عرفت أنهما محمد بوضياف (علي الدريدي) وأحمد بن بلة، كان بوضياف يلبس معطفا ويبدو عليه المرض، أما بن بلة فقد كانت صحته جيدة، كان قد حصل على وسام عظيم في الحرب العالمية الثانية، بدأت الثورة في جبال الأوراس بإمكانيات هزيلة، فقد باع مصطفى بن بولعيد حافلته ببلدة أريس القريبة من باتنة..."²⁸.

وان كان حافظ لم يحدد تاريخ اللقاء فالمرجح انه كان في بداية عام 1955، حيث كان ابن بلة وبوضياف مشغولين بمهام نقل الأسلحة عبر الجبهة الغربية وتوحيد الجبهة مع المقاومة المغربية، كان ابن بلة في رحلاته المتكررة الى مدريد يلتقي بحافظ لدراسة التطورات وطلب الاستشارة، وكان بوضياف ينسق معه مهام جيش تحرير المغرب العربي، ويوكل أحيانا الشهيد ابن مهدي لأداء هذه المهمة، كما كان حافظ يتنقل الى تطوان ويعاين تجسيد وحدة المقاومتين المغربية والجزائرية ميدانيا فيحس بنشوة الانتصار والسعادة لتحقيق أمله في وحدة المغرب العربي.

وقد تحدث حافظ في شهادته عن إسهاماته في دعم الثورة الجزائرية وعلاقاته بقيادة الثورة، وخاصة منهم ابن بلة وبوضياف، وقد أعجب كثير بحوية وصبر ابن بلة، الذي كان ينهض بمسؤوليات الثورة الكبرى ويدير ملف العلاقة مع المصريين، "كان أحمد بن بلة هو هزة الوصل بيننا وبين المصريين، كان يتمتع بفضيلة الصبر، وقد برهن على ذلك عندما أوقف المصريون باخرة السلاح الثانية في أواخر سنة 1956 بدعوى هيجان البحر، في حين كانت المفاوضات بين مصر وحكومة في مولي الفرنسية جارية لتحسين العلاقات"²⁹، وقد يكون حافظ هو الذي رسخ في ذهن ابن امهيدي صورة مصر البراغمية، وحقيقة الوضع بالمغرب العربي، وكان ينزل ببيته أثناء تنقله الى مصر، وقد أعجب حافظ كثيرا بشخصية الشهيد ابن مهدي وقال عنه: "العربي بالمهيدي طلب الشهادة فرزقها، لم يتخلف يوما عن صلاة الصبح، كان هادئا لا يرفع صوته"³⁰. وهكذا فقد ارتبط حافظ بعلاقات وثيقة مع قادة الثورة الجزائرية وتحنن لدعمهم بكل ما يملك من قوة، وتحول بعد استقلال المغرب الى خدمة الثورة الجزائرية، حيث قدم لها ظروف مختلفة من المساعدة انطلاقا من خبرته وموقعه في اسبانيا، وهو ما نوضحه فيما يلي.

ثالثا : جهود حافظ إبراهيم في مساعدة الثورة الجزائرية:

خلال المرحلة الأولى من اندلاع الثورة تعرف حافظ على محمد بوضياف وأحمد بن بلة وعرض استعداداه لتقديم المساعدة للثورة الجزائرية.

وبذل حافظ منذ اتصاله الأول بالقادة الجزائريين جهودا معتبرة في البحث عن الأسلحة، واقتنائها وإرسالها عبر المغرب للثورة الجزائرية، وسخر شبكاته لدعم الثورة الجزائرية والمقاومة المغربية، وتأكيدا على استمراره في دعم الثورة الجزائرية كان يعرض خدماته بسخاء ويستقبل المسؤولين الجزائريين في بيته وينتقل إليهم في ساحة المعركة بالريف المغربي حيث ينشط ابن امهيدي، ففي اليوم الموالي لعودة محمد الخامس الى المغرب في 15 نوفمبر 1955 "التقى حافظ ابراهيم بالسيد العربي بن مهيدي بحضور الدكتور الخطيب الذي قدم خصيصا من الريف لحضور اجتماعات حركة المقاومة المغربية وأعرب حافظ عن وضع كامل شبكات المقاومة المغربية على ذمة جبهة التحرير الجزائرية، وإثر هذا اللقاء تحول العربي بن مهيدي إلى مدريد حيث بقي قرابة عشرة أيام في ضيافة حافظ ابراهيم قبل أن يتوجه إلى القاهرة"³¹.

وإثر حصول المغرب على استقلاله واصل حافظ ابراهيم صحبة الدكتور الخطيب تجنده لمساعدة المقاومة الجزائرية، وهذا ما تؤكدته شهادة حافظ بالقول: "ولما استقل المغرب واصلت مع الدكتور الخطيب مساعدة الجزائريين وتزويدهم بالسلح، ومررنا لهم الشبكات التي نظمناها في أوروبا، كما تخلينا لهم عن الباخرة الثانية التي بقيت في مرسى مطروح إلى غاية شهر ماي 1956، وفي يوم أخذ عبد الكريم في سيارته أحمد بن بلة وولين الدباغين، وذهبوا لزيارة محمد الخامس الذي أبدى استعداده الكامل لدعم الثورة الجزائرية"³².

ويذكر الغالي العراقي أن الملك طلب الاجتماع بت رفقة الخطيب وحافظ يوم 12 ماي 1956، واستمع مطولا لحديث حافظ الشيق، وقد هنأه الملك على الجهود التي بذلها في سبيل المغرب، وخاطبه وهو يودعه عطفًا على طلبه بمساعدة الجزائريين: "بلغ يا حافظ ... بلغ الجزائريين بأن المغرب ملكا وحكومة وشعبا باقون على العهد الى أن تتحرر الجزائر، وأن نحتفل جميعا بيوم استقلالها وحريتها..."³³، وهذه الشهادة التي سمعناه مشافهة من العراقي تدل على حرص حافظ على خدمة الثورة الجزائرية³⁴.

وقد عين بن بلة محمد يوسف مسؤولا عن شبكة جبهة التحرير الوطني باسبانيا وطلب منه الاستفادة من خدمات حافظ، حيث اتصل به وطلب منه تقديم المساعدة اللوجستية للتنقل بين المغرب واسبانيا، وكانت مساعدته ثمينة في الاتصال بالشخصيات التي يعول عليها في شراء وتهريب الأسلحة، وفي إنشاء شبكة تموين لصالح الجبهة، كانت تتشكل من مجموعتين: الأولى برية تعتمد السيارات وتسلك طريق: برشلونة . مدريد . طنجة . الناظور . وجدة. والثانية بحرية تعتمد المراكب وتحمل الأسلحة في براميل الزيت، تنطلق من برشلونة لتنزل حمولتها بمليلية أو الناظور³⁵. وقد تلقى يوسف من الخطيب وحافظ جوازا مغربيا باسم مصطفى مالك يحمل هذه الملاحظة" في خدمة صاحب السعادة سفير المغرب في اسبانيا"³⁶.

وقد شجع حافظ محمد الخامس على زيارة تونس وعقد ندوة المغرب العربي بمشاركة جبهة التحرير الجزائرية، وكان يعتقد أن في هذا الاجتماع خير للقضية الجزائرية، وذكر حافظ أن محمد الخامس عرض عليه تمثيل الجزائريين³⁷، وقد يكون ذلك تقديرا لمكانة حافظ لدى القادة الجزائريين أو احتراز احتياطي من عدم حضورهم، والمعروف أن القادة الجزائريين أقنعوا بحضور مؤتمر تونس، وكان حافظا مشجعا لحضورهم هذا المؤتمر، وحدث في هذا الشأن ابن بلة ورفاقه في مدريد، حيث يورد لجاوي أن ابن بلة حل يوم 20 أكتوبر 1956 بمدريد، والتقى بحافظ ابراهيم وعبد الرحمان اليوسفي ومحمد بوضياف الذي أعلمه برغبة محمد الخامس في مقابلة قيادة الثورة الجزائرية³⁸، وقد حل حافظ بالمغرب، ولكنه لم يحضر اجتماع القادة الجزائريين التمهيدي بالأمر الحسن في تطوان، في حين حضر اجتماعهم بالملك محمد الخامس بالرباط رفقة عبدالرحمان اليوسفي³⁹، ولا نعرف ما إذا رافق حافظ الوفد المغربي إلى تونس أم لا.

وقد واصل حافظ مهمة تواصله ودعمه للثورة الجزائرية طوال سنواتها المتعاقبة، وكشف بوصوف خليفة ابن امهيدي على منطقة وهران اتصالاته بحافظ ابراهيم والدكتور الخطيب خاصة في مجال شراء الأسلحة، حيث سلم محمد الخامس للخطيب وحافظ ابراهيم مبلغ 250 مليون فرنك اقتنيت به 2750 بندقية مع ذخيرتها، وقد أشرف حافظ على إفراغ هذه الشحنة في فيفري 1957 وسلمها لبوصوف وبعدها بفترة أمد حافظ ابراهيم كريم بلقاسم بمبلغ 100000 دولار فيما مكن السيد الشريف (مستشار الملك) محمد اليوسفي من مبلغ 117 مليون فرنك إضافي لإعادة تنظيم شبكة تسليح الثورة انطلاقا من مدريد⁴⁰.

وفي نفس الفترة ربط حافظ ابراهيم علاقة متينة بوزير الدفاع الاسباني "مونوسوانتش"، الذي أعرب له عن استعداداته لتقديم تسهيلات كبيرة لشراء السلاح لثوار الجزائر شريطة أن يكون ذلك بواسطة إحدى الدول، ولكن تخوف المسؤولين الاسبان فيما بعد حال دون ذلك. وهذا الموقف كان في رأينا معزولا وفرديا، ولم يكن موقف السلطات الاسبانية التي كانت تشدد رقابتها على نشاط جبهة التحرير الجزائرية، وقد تعرض منزل حافظ للتفتيش مرات عدة، ووصف بأنه غار جبهة التحرير الجزائرية⁴¹.

ومن المهام التي تكفل بها حافظ كذلك المساعدة في نقل العمل المسلح الى فرنسا، حيث كانت اسبانيا حلقة الوصل والمرور من المغرب الى فرنسا والعكس، وفي هذا الشأن يورد حافظ: "طالما فكرت في هذا المنهج رفقة الأخوين أحمد بن بلة والعربي بلمهدي وبعض الإخوان المغاربة، حاولنا مرارا، لكننا لم نوفق لأسباب كثيرة، أهمها أن حزب مصالي الحاج كان قويا في فرنسا، ومصالي كان ضد الكفاح المسلح أينما كان"⁴². وذكر حافظ أنه بعث بالتنسيق مع ابن بلة الأخ ابراهيم المانوزي للاتصال بالإخوان الجزائريين وتجنيدهم في فرنسا⁴³، ويبدو أن الوفد الخارجي للجبهة ممثلا في ابن بلة حاول استغلال الإمكانيات التي وضعها حافظ في الاتصال بفدرالية الجبهة بفرنسا وتجنيد المهاجرين الجزائريين تمهيدا لنقل العمل المسلح الى فرنسا، وقد تم تأجيل بدأ لعمل المسلح في فرنسا الى عام 1958، حيث تمت الاستفادة من مختلف الشبكات اللوجستية التي وضعت خصيصا لمهمة نقل الأشخاص والأسلحة الى فرنسا عبر اسبانيا.

وتأكيدا على دور حافظ في دعم الثورة الجزائرية نورد شهادة الغالي العراقي، حيث يقول: "في البداية كنت أضن أن روابط الدكتور حافظ إبراهيم تنحصر مع المجاهدين المغاربة فقط، فإذا بي أكتشف أن علاقته بجبهة التحرير الجزائرية كانت متينة وعميقة لأنها كانت بمثابة العمود الفقري للثورة الجزائرية فوق التراب الاسباني"⁴⁴. وهكذا فقد نال حافظ شرف المشاركة في دعم الثورة الجزائرية، وخاصة في المرحلة الأولى التي كانت في حاجة ماسة الى مناصر من حجم حافظ ابراهيم. وقد ظل حافظ يرتبط بعلاقات وثيقة مع قادة الثورة، وخاصة مع بوصوف وكريم بلقاسم وابن طوبال، واستمر في تأدية خدماته اللوجستية لصالح الثورة، وان كان بوتيرة أخف، حيث تسكت شهادة الرجل ومصادرنا المعتمدة عن توضيح دوره وارتباطاته، فهل يعود ذلك إلى تطور قدرات الثورة واعتمادها على وسائلها الخاصة، أم أن هناك تقصيرا غفلت عنه الشهادة والمصادر التي رجعنا إليها، نعتقد أن محاولتنا هذه ستظل تمهيدية للكشف عن جوانب من انجازات المناضل المغربي الذي قدم الكثير لكنه ظل مجهولا، وتوفي مؤخرا باسبانيا في صمت.

الخاتمة:

ومن خلال ما سبق فقد كان حافظ مناضلا مغاريا، خدم قضايا تحرير المغرب العربي بتفان وإخلاص، وكان يؤمن بفكرة وحدة المغرب العربي، وبالعامل المسلح كسبيل للتحرر، وقد أسهم في دعم حركات تحرر المغرب العربي، بدء بالقضية التونسية وانتهاء بالثورة الجزائرية مروراً بدعم حركة المقاومة المغربية، وبذل جهودا جبارة في دعم الثورة الجزائرية، وذلك بتقديم الدعم العسكري واللوجستيكي والمعنوي، وكسب مختلف الأطراف لخيار دعم الكفاح الجزائري وخاصة الأوساط المغربية والاسبانية.

الهوامش:

- ¹ خليدي محمد وخياش حميد: جهاد من أجل التحرير ، الدكتور عبد الكريم الخطيب والدكتور حافظ ابراهيم ، ط1، منشورات افريقيا ، الرباط 1999. ص 58
- ² المصدر نفسه، ص. ص 58.59.
- ³ محمد خليدي وحميد خياش: المصدر السابق، ص. ص 61.62
- ⁴ عبد الرحمان ياسين من مواليد سنة 1910 بالجزائر من عائلة سورية الأصل، استقرت عائلته بتونس منذ الحرب العالمية الأولى ، حيث زاول عبد الرحمان تعليمه الابتدائي والثانوي، وإثر وفاة والده اضطر للانقطاع عن الدراسة، انخرط في الحزب الدستوري، وفي بداية 1934 انتقل إلى "تولوز" لمواصلة تعليمه العالي، ولأسباب مادية انقطع عن الدراسة وتوجه إلى الجزائر التي بقي بها إلى نهاية عام 1938، ثم انتقل إلى فرنسا ودرس الآداب بباريس بين 1938 و1939، وخلال إقامته هناك نشط في حزب الشعب الجزائري وعمل بصحيفة "الأمم"، وفي سبتمبر 1939 انتقل إلى ألمانيا واتصل رفقة أمين الحسيني بالضباط الألمان لطلب المساعدة، وقد عمل مذيعة لمحطة "زيسان" وتزوج من ألمانية، وعاد مع القوات الألمانية إلى باريس في جوان 1940، كان كثير التنقل بين برلين وباريس وطنجة من أجل إنجاح مشروع ثورة المغاربة، غادر باريس إثر دخول الحلفاء إليها ليستقر صحبة حافظ ابراهيم في اسبانيا، وفي مدريد أسس بالتعاون مع المحاربين الأسبانية "مكتب الاستعلامات للعالم العربي"، وواصل نشاطه المعادي لفرنسا، فكان يث عبر راديو مدريد حصة يومية باللغة العربية معادية لفرنسا موجهة إلى سكان شمال إفريقيا، وكثير الاتصال بالمناضلين المغاربة، توفي بمرديد سنة 1948 ودفن بمقبرة "كرينيون" الخاصة بالجنود المسلمين المحاربين مع فرانكو. ومثل ياسين نموذج فريد من نوعه في تجسيد النضال المشترك التونسي الجزائري باعتباره مناضلا في الحزب الدستوري التونسي وفي حزب الشعب الجزائري، انظر عادل بن يوسف: المناضل الدكتور حافظ ابراهيم، المجلة الصادقية، تونس، الجزء الأول، عدد 21 (جانفي 2001)، ص 37
- ⁵ عادل بن يوسف: المرجع السابق، ص. ص 32.33
- ⁶ أُرشيف الإقامة العامة، المودع بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية التونسية، شريط R52 ، صندوق، ملف 1، تقرير بتاريخ 25 أكتوبر 1944 وآخر بتاريخ 6 سبتمبر 1944.
- ⁷ عادل بن يوسف: المرجع نفسه، ص 34.35
- ⁸ شهادة الغالي العراقي، مقابلة شخصية، الدار البيضاء، 26 ديسمبر 2004
- ⁹ عادل بن يوسف: المرجع نفسه، ص. ص 31.32
- ¹⁰ Bahi Ladgham ، **Correspondances 1952 – 1955، les années décisives**، Cérès productions، Tunis p 96 ، 1990.
- ¹¹ شهادة حافظ ابراهيم ، المصدر نفسه ، ص. 65.
- ¹² المصدر نفسه، ص. ص 67.68
- ¹³ المصدر نفسه، ص. ص 65.66
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص. ص 65.66
- ¹⁵ شهادة عبدالكبير الفاسي، القيادي في حزب الاستقلال، شهادة مسجلة عام 1987، ومحفوطة بالمتحف الوطني للجهاد، رقم 329/2
- ¹⁶ شهادة حافظ ابراهيم ، المصدر نفسه، ص. ص 68.69
- ¹⁷ L'EBJAOUI Mohammed; **Verité sur le révolution Algerienne** ،ed; Gallimar، Paris. 1970 ، p126
- ¹⁸ شهادة حافظ ابراهيم، محمد خليدي وحميد خياش: المصدر نفسه، ص 76
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص. ص 71.72
- ²⁰ المصدر نفسه، ص 77
- ²¹ المصدر نفسه، ص 75
- ²² الغالي العراقي : ذاكرة نضال وجهاد، حديث عن سنوات التحرير والجمهر والغيار، حوار مع أحمد نشاطي، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002 ، ص. ص 106.107
- ²³ المصدر نفسه، ص. ص 72.73
- ²⁴ انظر بتفصيل عن جيش تحرير المغرب العربي ، مقالتي عبدالله : العلاقات الجزائرية المغربية والافريقية، ط1، دار السبيل، الجزائر، 2009، مج1، ص. ص 142.199
- ²⁵ محمد خليدي وحميد خياش : المصدر نفسه، ص. ص 70.71
- ²⁶ المصدر نفسه، ص 87
- ²⁷ شهادة عبدالكبير الفاسي ، المصدر السابق
- ²⁸ محمد خليدي وحميد خياش المصدر نفسه، ص 70
- ²⁹ المصدر نفسه، ص 74
- ³⁰ المصدر نفسه، ص 70
- ³¹ L'EBJAOUI Mohammed **Verité sur le révolution Algerienne** ،ed; Gallimar، Paris. 1970، p35
- ³² شهادة حافظ ابراهيم: المصدر نفسه، ص 70
- ³³ الغالي العراقي: المصدر السابق، ص، ص 190، 215

³⁴ مقابلة شخصية، مع الغالي العراقي، سبق ذكرها

³⁵ BENATIA Farouk ;Si انظر شهادة محمد يوسف: مجلة الجيش، يصدرها الجيش الوطني الشعبي، الجزائر، عدد خاص بالتسليح، ص. ص 21 و 26 و **Mohammed KHATAB précurseur du maghreb** OPU, Alger, 1991, pp75 - 76

³⁶ L'EBJAOUI Mohammed **op cit.** p 135

³⁷ محمد خليدي وحميد خباش : المصدر نفسه، ص، ص 82، 84

³⁸ L'EBJAOUI Mohammed **op cit.** pp 135 -136

³⁹ Ibid ; p137

⁴⁰ Ibid , p p 137 - 138

⁴¹ محمد خليدي وحميد خباش : المصدر نفسه، ص 78

⁴² المصدر نفسه، ص 76.75

⁴³ شهادة حافظ ابراهيم: المصدر نفسه، ص 76

⁴⁴ الغالي العراقي : المصدر السابق، ص 107